الإصلاح المالي في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ)

عامر محمد نزار جلعوط
ماجستير في الاقتصاد الإسلامي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

لقد بدأت المخالفات المالية منذ بداية العصر الأموي، وذلك لأسباب عديدة ترتبط بالقائمين عليها، وشاء الله تبارك وتعالى أن تتحقق نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقد أخرج الإمام أبو داود وغيره عن أبي هريرة يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . ومعنى التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما . فماذا جدد عمر بن عبد العزيز من الناحية المالية:

لقد تولى الحكم لمدة سنتين وخمسة أشهر، ملأ الأرض فيها عدلاً، فأعاد عهد الخلفاء الراشدين وأحياه، ولم يتبع سياسة بني أمية التي اتسمت بالمخالفات المالية سواء فيما يتعلق بالموارد أم النفقات والعطاءات، وكذلك الترف المالي والإسراف فيه، بل قام رحمه الله بنشر العدل ورد المظالم إلى أهلها.

لقد كانت شخصية عمر بن عبد العزيز مؤهلة لذلك التجديد المالي ومن أهم تلك المؤهلات :

- التزام طريق تقوى الله منذ صغره.
- أخذه العلم الصحيح من منابعه، وكان قد حفظ كتاب الله في صغره وتلقى العلم من علماء المدينة حتى أن علماء عصره يشعرون معه بأنهم تلاميذ له.
- تعامله مع منهج الشورى، وكان قد أسس مجلساً للشورى يتكون من عشرة فقهاء لا يقطع أمراً دونهم وهم كبار فقهاء عصره.
- إقامته لميزان العدل والإنصاف في كل أمر.

ركائز الإصلاح المالي في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

١. إحياء العمل بسنة الخلفاء الراشدين: إن أول منهج للتجديد الإصلاحي الذي قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله هو رد الأمور إلى ما كانت عليه زمن الخلفاء الراشدين، وقد بيّن ذلك حينما قال لعمته بعد أن اشتكت إليه تغيّر أحوال أقاربها سلباً فيما ترى وذلك بعد أن قام رحمه الله بترشيد الإنفاق، وسوّى بين بني أمية وبقية الناس: (يا عمة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبض وترك الناس على نهر مورود، فولى ذلك النهر بعده رجل فلم يَستنقص منه شيئاً حتى مات، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات، ثم ولى ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه وأيم الله لئن أبقاني الله لأردنه إلى مجراه الأول فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط) .

وفي ذلك تبيان عن إرادته بإعادة جميع السياسات المالية التي كانت في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده خاصة جده لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولقد قال لسالم بن عبد الله بن عمر وهو أحد رجال مجلس الشورى: اكتب لي سيرة عمر حتى أعمل بها فقال له سالم: إنك لا تستطيع ذلك. قال: ولم؟ قال: إنك إن عملت بها كنت أفضل من عمر لأنه كان يجد على الخير أعوانا وأنت لا تجد من يعينك على الخير .

٢. الاهتمام والعناية الفائقة ببيت المال: حيث اعتبر صاحب بيت المال أحد أركان الدولة الأربعة (الوالي والقاضي والخليفة وصاحب بيت المال). حيث كتب إلى أحد ولاته :(إن للسلطان أركانا لا يثبت إلا بها فالوالي ركن والقاضي ركن وصاحب بيت المال ركن. والركن الرابع أنا، وليس من ثغور المسلمين ثغراً أهم إلي ولا أعظم عندي من ثغر خراسان، فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم فإن يك كفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك، وإلا فاكتب إلي حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم) . فكان بيت المال فائضاً عنهم، فأمر عمر بأن يقسم الفضل على أهل الحاجة.

من هنا نجد أن بيت المال المركزي في الدولة الإسلامية كان له دور عظيم في تقوية بيوت الأموال الفرعية، فهو كالقلب الذي يوزع الدم في شرايين الأجهزة العامة.

٣. منع قوانين الاحتيال المالي: حيث قام بإلغائها بعد أن وضعها عمال بني أمية لإجبار أهل الذمة الذين دخلوا الإسلام على الاستمرار في دفع الخراج والجزية.

٤. الترغيب المالي في الدخول بالإسلام: وذلك عندما أسقط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة وكان الحجاج قبله لا يسقطها عمن أسلموا، فأعلن عمر أن كل من يدخل الإسلام بإعلانه الشهادتين تسقط عنه الجزية. ولم يهمه ما يتبع ذلك من تخفيض دخل الدولة، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً لاسيما في ما وراء النهر وبعض أهل الأندلس.

٥. اهتمامه بصلاح الأحوال أكثر وأعظم من اهتمامه بجمع الأموال:

ومما يدلل على ذلك إيجاده المخرج الشرعي لأصحاب الأراضي الذين أسلموا فالمسلم لا يؤدي الخراج، فما يكون وضع هذا حينما يسلم؟.

لقد أوجد عمر بن عبد العزيز الحل في ذلك عندما فرض على المسلمين الذين يبقون على أراضيهم أن يدفعوا أجرة للأرض، هذه الأجرة ليست الخراج، وإنما هي مقابل استثمارهم للأرض، فكانت النتيجة واحدة فالمسلمون يدفعون أجرة، وغيرهم حكمهم حُكْمُ الخراج، وبذلك يكون قد حفظ أمانة الحكم الشرعي ورصيد بيت المال من هذا المورد، ويؤكد سياسة عمر بن عبد العزيز في الخراج ومع أهل الذمة ما كتبه لأحد عماله: (من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الحميد سلام عليك أما بعد: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجَور في أحكام الله وسنة خبيثة استنها عليهم عمّال السوء، وإن قَوام الدين العدل والإحسان، فلا يكونن شيء أهم إليك

من نفسك فإنه لا قليل من الإثم، ولا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فَخُذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذن في الخراج إلا وزن سبعة ليس لها آيّن ولا أجور الضرابين ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج ولا أجور البيت ولا دراهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاّني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة ليحج بها والسلام) . فبين لعامله الأمور التالية:

- الحذر من الجور.
- العمل على إصلاح أراضي الخراج.
- الحث على أخذ وظيفة الخراج بكل رفق.
- نهاه عن أخذ ما أدخله الأمويون من ضرائب بغر وجه حق مثل هدية النيروز وثمن الصحف ولا أجور الفيوج وأجور البيت ودراهم النكاح. وقال رحمه الله أما المكس فإنه البخس الذي نهى الله عنه ((وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)) الشعراء الآية: ٨٣
- لا خراج على من أسلم من أهل الأرض.
- الحث على لزوم الطاعة.

٦. ربط رحمه الله بين الإصلاح المالي والإصلاح الاقتصادي حيث قام بما يلي:

أ- انتزع الأرض المفتوحة من أيدي بنو أمية ، وجعلها للذين يفلحون فيها، ويزرعونها، وفرض عليها خراج، كباقي الأرض الزراعية، مما جعل من الفلاحين أثرياء، وأدى ذلك إلى تدفق أموال الخراج إلى بيت مال المسلمين، وأسعد الناس بذلك العمل.

ب- قام برد المظالم لأصحابها، كالضياع، التي استولى عليها بني أمية، والإقطاعيات، والحوانيت المغتصبة، حتى أنه خيّر زوجته فاطمة بين رد حُليّها إلى بيت المال وبينَه فاختارته ، فالناس سواسية في كل شيء عنده .

ت- فتح باب الهجرة في البر والبحر لكل الناس، حيث أعطى الموالي الحرية في أن يهاجروا أنى وكيف شاؤوا ومتى أرادوا ولو على حساب أراضي الخراج. فمن يعمل مكرهاً لا يقدم إنتاجاً متقناً. وكان قد قال في ذلك: (إن البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله كيف نحول بين عباد الله ومعاشهم) .

ث- أطلق حرية التجارة، وعمل على عدم التدخل في الأسعار.

ج- قام ببناء المساجد والحوانيت للفقراء، لكي يأكلوا منها، واهتم بالمرضى والمحتاجين، واختفى الجوع والحاجة، حتى أن دافع الزكاة لا يجد من يأخذها منه.

٧. مورد الزكاة:

إن مورد الزكاة مورد عظيم وثابت وأساس، وله فضل مساعدة بيت المال في كثير من واجباته عبر عصور الأمة الإسلامية، ورغم أن حصيلة الزكاة الواردة لبيت المال قد نقصت بشكل عام في العصر الأموي إلا أن تولي عمر بن عبد العزيز الحكم غيّر الحال لدرجة جذرية ومما ساعد على ذلك:

أ- الإصلاح المالي والاقتصادي وحرية التجارة هذه العوامل كان لها أثّر بارز في زيادة الإنتاج وبالتالي زيادة مورد الزكاة.

ب- العدل والتقوى في عهده الذي ما إن سمع الناس بولايته حتى سارعوا إلى دفعها للدولة، وذلك عائد إلى ثقة الناس بتقديم الزكاة إلى ديوان الصدقات.

ت- أعاد عمر بن عبد العزيز أخذ الزكاة من العطاء، أي بالخصم عند المنبع، وهذا بدوره ساهم في تخفيف تكاليف جباية الزكاة، فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نمواً ملحوظاً في حصيلة الزكاة .

وأما أثر كل ما مضى فهو إغناء الناس وهذا ما يرويه عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بإسناد جيد قال: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً، ثلاثين شهرا، لا والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون للفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فلا يجده فيرجع بماله؛ قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس .

وما أحوجنا إلى الكثيرين من أمثاله على مستوى الأسرة وفي أيّ مؤسسة خاصة أو عامة.

المراجع:

١. أبو داود كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قَرْنِ الْمِائَةِ، جـ٤ ص١٧٨ بإسناد صحيح. دار الكتاب العربي.
٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود جـ ١١ ص٢٦٠ محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب دار الكتب العلمية – بيروت ط٢ ١٤١٥.
٣. السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز ص٤٧، قطب ابراهيم، العيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨.
٤. وفي ذلك إشارة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه.
٥. البداية والنهاية لابن كثير جـ٩ ص٢١٤. كذا تاريخ دمشق لابن عساكر جـ٧٠ ص٤١ دار الفكرط١.
٦. البداية والنهاية لابن كثير جـ٩ ص٢٠٠.
٧. مالك في الموطأ رقم ٦١٨، تاريخ الدولة الأموية للعش ص٢٧٠.
٨. عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب الأعرج القرشي من بني عدي بن كعب. عن تاريخ الطبري جـ ٤ ص٦١.
٩. آيين: لفظ فارسي يراد به الصورة والزي والرسم. عن البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس جـ١ ص٢٠ تحقيق الدكتورة وداد القاضي.
١٠. تاريخ الطبري جـ ٤ص٧٠، كذا الخراج لأبي يوسف ورواته ثقات عند أبي يوسف.
١١. قيل الفُيُوجُ الذين يدخلون السجن ويخرجون يَحْرُسونَ الجوهري في ترجمة فوج والفَيْجُ فارسي معرَّب والجمع فُيُوجٌ وهو الذي يَسْعَى على رجليه وذُكر أنه المُسْرِعُ في مَشْيِه الذي يحمل الأخبار من بلد إلى بلد. عن لسان العرب جـ ٢ص٣٥٠.
١٢. تاريخ الدولة الأموية للعش ص ٢٦٥، ٢٦٩.
١٣. سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ص٨٤، دار المنار ط، ١٤٢٠ هـ، وكذا تاريخ الخلفاء للسيوطي. ص١٧٤.
١٤. سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص٢١٩. حتى أن عمر بن عبد العزيز قد قال لبنيه عند وفاته: لا تتهموا الخازن فإني لا أدع إلا أحداً وعشرين ديناراً، فيها لأهل الدير أجر مساكنهم وثمن حقله كانت له فيه، وموضع قبره، رحمه الله.
١٥. سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٨٢، ط٢ مكتبة وهبة.
١٦. عمر بن عبد العزيز، معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة للدكتور علي الصلّابي.
١٧. المعرفة والتاريخ جـ١ ص٣٣٣ لأبي يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي دار الكتب العلمية – بيروت، تهذيب الكمال للمزي جـ٢١ ص٤٤٤. مؤسسة الرسالة ط٤. فيض القدير جـ١٣ ص٨٣. المكتبة التجارية الكبرى.